

الوجه الذي هشمه الليل

قصة بقلم عبد الصمد حسن

كان الباص المنطلق صوب الجنوب تتقدمه غيرة من تراب متطاير .
وتوقف عند مدخل ذي فرعين لطريق ترابية ضيقة ملتوية كافي رقطاع
كالحة .

بعد ان هبط الدرجة المتسخة عرج للطريق ثم سلك الفرع الذي
يقع لصق يساره مباشرة .

كانت السماء النقية تكتنفها ظلمة شفافة مزجت برطوبة لزجة
كالصمغ ، وأضواء اعمدة الشارع الاسفلتي المنعرج القابعة على
الجانبين تبعث بأقراص النور المتألقة عند مدخل الطريق .

بعد أن قطع مسافة ، توقف برهة وأخرج يده من جيب سرواله
المسكري . كانت قبضة يده مضمومة على علبة سجائر . وملا حدقته
الحمرتين الدخان الخانق وهو يشمل سيجارة شعر انه برغبة شديدة
اليها .

ومشى يتابع سيره عبر الصمت الفاجع . وحين تخطى صفيين
كثيفين من أشجار النخيل وظلال منشابكة لم تنبذ بعد أوقف من
حركة قدميه أمام باب من الصفيح ذي أطواق طويلة مضلعة ترتفع عن
نهايته المسننة الحادة .

كان الباب يرتكن لزاوية سور طيني سميك تسلقته لمنتصفه
الحلفاء المنشابكة كاسلاك شائكة وزحفت لصقة من الأسفل نباتات
العاقول الخضراء .

مد يده وطرق الباب طرفات سريعة متلاحقة . مرت فترة ، انفرج
الباب بعدها وقد برز خلفه وجه امرأة يفرق في عتمة داكنة رطبة كعتمة
سرداب أثري . وهنفت : مريم .

دلف الجندي كالتائم في العتمة فأحاطته المرأة بذهول وهي تشم
رائحة جسده المسكرة . وعيرا باحة البيت وقد تبرعم السكون
الجارف من رأسيهما . . كأغفاءة مفاجئة . بعدها دلفا عبر باب ذي
شقوق متباعدة موارب للباحة . . لفرقة دافئة غارقة بدكنة مريبة بدنها
بعض الشيء الضوء المرتجف المنسكب من داخل فانوس الزيت المرتكن
للجدار فوق رف خشبي مقوس . وهناك خارج البيت تهاوى السواد
وقد ضاعا في ليلة طويلة :

- لم أكن أتوقع أن يحدث كل هذا .
- وأنا . لكنه حدث .

وباتجاه خطوط الضوء الزاحفة فوق أرض القرية والمرطمة
بالجدران والباب مشى فأدار القرص الفضي للفانوس فإزداد توهج
الشعلة الصغيرة المتماهلة . ورات الوجه التوتري :

- أحدث لك شيء ؟
- إصابة بالغة في ذراعي . تسلق الجرح قليلا لفوق .

وبحركة بطيئة خلع قميصه المسكري فبرز الجرح الاحمر . كان
عميقا أحاطته بقع من دماء فاتمة تغللت الشعيرات الدقيقة النافرة
المنتشرة هنا وهناك :

- أغسله ؟

- مضى عليه يومان .
وتحسست الجرح بأصابعها :
- دعني أشده .

وانتقلا فوق السرير الواسع ، ورأى دوائر النور الشفاف تتزاحم
فوق رأسيهما ثم تتصاعد كغبرة ضبابية صوب فضاء الغرفة . . وفرق
في خدر فاجع محمل بوطاة خانقة كوطاة الموت المدلهمة . .
- كنت الأفي الليل وحدي ، منذ اليوم الذي ودعتك فيه .
- أشياء كثيرة فكرت بها هناك ، فوق خط النار .

امتدت أصابعه تتحسس شعرها اللامع المعطر ، وتسربت تحت
ثيابها برق :

- الغرفة باردة .

- هي طينية . تكون باردة في الصيف ، حارة في الشتاء .

- ألم يتغير صبغ السقف والجدران ؟

- لا . الأشياء لم تتغير منذ غيابك .

- وهدى ؟

- كانت معي قبل مجيئك بساعات . تسأل عن الأخبار ، أخبار
والدها . أنتم لم تبعثوا حتى برسالة واحدة ، فلم نعد نسمع عن
أخباركم شيئاً .

- اننا هنا نحرس الكنز .

- وما الكنز ؟

- يافا . . وحيفا .

- وبعد ؟

- نابلس ، والقدس . ندافع عن هذه الكنوز حتى نستردها .
سوف نعلق الدماء فوق الجدران باقات زهور .

- كيف القدس الآن ؟

- تعيش احزان حزينان .

ألصقت وجهها لذقنه ، فمسح وجنتها اللافحة بشفتيه :

- حدثني كيف أصبحت ؟

- بقذيفة . أثناء غارة اسرائيلية جوية مباغتة في الليل . الفارات
فوق تلك التربة مسنمة .

- ماذا يحدث أثناء قصف الطائرات اليهودية ؟

- يلتهب الفضاء كجمرة هائلة . تحترق الغلال والشمار . تتمدد
هياكل بشرية فوق التربة الساخنة .

- والموتى ؟

- يتساقطون بكثرة ، بعد أن يتلاشى بريق الشهب النارية المتألقة
من السماء . أحيانا تكون الجثث المتفحمة متشابهة . يكون من الصعب
التفريق بينها . وكانت نظراتها تخبو بتماهل كضوء واهن في زحمة
الظلام :

- ألا حدثني عن جنودنا ؟

- يدافعون كان الموت عبر برتقال .

تبددت ذرات الضوء المنقذة ونهاوت الذبالة القطنية المحترقة
شريطا رماديا قاتما فوق رأسه وعينييه وجرحه المتبرد وتكاشفت العتمة

سبع بطل العالم في رمي القرص

يحمل في يديه قرص الشمس
يزرع في التراب
أقدامه

ويستقيم عاريا ، كخنزلة تخترق السحاب .
يرجع للوراء
يهتز قرص الشمس في يديه
يشد كفه عليه
بكل ما يملكه من الغضب

يدفعه الى السماء
يعلو ، ويعلو ، هادئا
يلمس باب الرب
تنكشف الاشياء

لامعة مخيمات اللاجئين في الصحراء
لامعة معلبات الجبن في يد الاطفال
لامعة دموعهم .
لامعة عظامنا على الرمال
لامعة بنادق الثوار في الحقول والجبال

لامعة عيونهم
تشعل وجه الارض والسماء
وتشعل الهواء .
يسقط خارج الزمان والمكان قرص الشمس
يعبر جرح الامس
ويستقر مرة ثانية في يده
يعاود اللعب
بكل ما يملكه من الغضب .

ما راعني
ليست عيون الشمس
ما راعني : اقدامه
أقدامه ، وذلك التوتر المحموم والتقلصات
والخوف من سقوطه ، والانفلات
قدرته على التماسك الاليم
قدرته على تحمل الالم .

يسرى خميس

القاهرة

الكثيفة فوق السرير الواسع . وكانت هي تفوص في عينيه تبحث عن
تألقهما المنطفيء :

– ماذا . أنت لا تتحرك . أحلمت ؟

– نعم . حلمت . مريم . حلمت كأنني أركض كفارس مهزوم .
أركض فوق ساحة النار بين الجثث المحترقة ، وفجأة أتهاوى كطير
جريح . كانت اقدام تركض من حولي واصوات معرودة وعواء حاد يشبه
عواء صفارات الانذار يملأ الفضاء . حاولت ان انهض في الظلام . ان
أركض من جديد . ان اطير فوق الحمم واللهب ، لكنني لم أجد
الجنحين الذين احلق بهما . بغيت ممددا . كانت الاقدام الراكضة
تسحق رأسي والعواء الاهوج الحاد يمزق جسدي كشظايا قبيلة .

– أنت تعب . تعب جدا .

– سالتك عن هدى . أهي عند جدتها ؟

– أجل . كيف هو والدها ؟

– يقول : انه لن يعود حتى يصدق الآذان من جديد مكبرا فوق

قياب القدس .

– وهدى ؟

– حملني سلامه لها !
– أكان من الذين ذهبوا ولن يرجعوا ؟
وشاهدته بوضوح . كان وجهه محتقنا كأنه يستحم في نريف حاد
لزوج وكان يصرخ :
– لكنهم لم يموتوا أبدا . لم يموتوا .
وشدته اليها بعنف :
– ماذا . أنت بحاجة لشيء ؟
– لا أرغب في التحدث عنهم . مريم .
وتمادت بلهجة كسيرة :
– أشاهدته ؟
– من ساحة الدم . كان يرتجف ، وقد تهشم وجهه بمسد ليل
طويل قضاه في العراء الملتهب .
– وبعد ؟
– تمدد بارتخاء ، ثم غاب عبر أسوار الليل .

عبد الصمد حسن

المراق – البصرة